

نورٌ على نور: داخل معلم أتاوا المثير الجديد- مفوضيّة الإمامة الإسماعيليّة

البروفسور كريم ح. كريم

هذه نسخة منقحة عن مقالةٍ نشرت أصلاً في مجلة أتاوا، شباط/آذار 2009، ص. 67-72.

الموجز

تتألأ كجوهرة متألقة تلمع أكثر بياضاً من الثلج الناصع الذي يغطي منظرها الشتوي. مفوضيّة الإمامة الإسماعيليّة، معلم أتاوا الأحدث، هي زواجٌ جميلٌ بين الشرق والغرب. مقاماً على جزءٍ رئيسي من سبّيس درايف حيث السّفارة السّعوديّة على أحد جانبيه ووزارة الأمور الخارجيّة على جانبه الآخر، يمثل [هذا] البناء مجعاً للتصاميم التقليديّة الإسلاميّة والمواد المعاصرة- الهدف منه أن يخدم "كتمثيلٍ للإنسانيّة والتّنوّز" المعكوس في بنائه الخارجي والداخلي. يعمل شكل هيكله، وانسيابات ميدانه، وزوايا النّظر، والمواد واللمسات الأخيرة، كلّها تعمل على إبراز أثر النّور.

تفحص للمكان/ بروفة:

يبدوان التصميم مستوحاً من آيةٍ معروفةٍ من القرآن الكريم:

الله نور السّموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكبٌ دري يوقد من شجرة طيبة زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور.

خلال النهار يكون البناء مشعاً، بينما يتألأ في الليل. ليس كلياً من الشرق أو الغرب، ولكنه يستشفّ بشكلٍ مبدعٍ من كليهما. [حيث] احتضن الطموح الدنيوي الوحي الإلهي.

تمّ تفويض هذا الصّرح ذي الـ 8,570 متراً مربّعاً من قبل سمو الأغا خان، الإمام الوارث للمسلمين الإسماعيليين حول العالم. قال في حفل الافتتاح في كانون الأوّل عام 2008: إنه [بناء المفوضيّة] يؤكد على نيتنا في مشاركة أفضل ما في العالم الإسلاميّ، في محيطٍ عربيّ. سعى الإمام إلى تشييد بناءٍ يعكس رغبة الإسماعيليين الكنديّين في الانخراط في الحداثة مع البقاء متعاطفين مع التراث الإسلامي- بناءٌ يوفي بدوره المقرر في تقديم هدايةٍ روحيّة ودنيويّة لأتباعه. تمّ وصف المفوضيّة، وهي البناء الذي سيأوي [سيستضيف] مؤسسات الإمامة، من قبل الإمام: كوسيلةٍ مفتوحة ومدنيّة [غير دينيّة]... وحرّم لدبلوماسيّةٍ مسالمةٍ هادئةٍ مبنيةٍ على منظور الإمامة حول التقارب العالمي وتنمية المجتمع المدني.

ويقوم الأغا خان أيضاً في كندا ببناء متحف الأغا خان و المركز الإسماعيلي ومسجدٍ في تورنتو وهو الآن في صدد تحويل متحف أتاوا الحربّي القديم في سبّيس درايف إلى المركز القيادي لمركز التعدديّة العالمي. ترسّخ هذه الأبنية حضوره في كندا، وهي بلدٌ لطالما قال عن قيمه أنّها تتقارب مع قيم جماعته المتعددة الجنسيات. تبدو العاصمة الوطنيّة [لكندا] خياراً واضحاً لمركز المفوضيّة الكنديّة، ولكن تصادف أتاوا أيضاً أن تكون منزل صفر علي إسماعيلي، وهو الإسماعيلي الأوّل الذي وصل إلى هذا البلد منذ نصف قرن مضى. هذه المدينة هي الآن منزلٌ لحوالي 1,000 إسماعيلي. (هناك جماعات أكبر حجماً في تورنتو، وفانكوفر، وكالغري.)

تشكل المشاريع الكنديّة جزءاً من شبكةٍ ممتدّة حول العالم. تحت إدارة الإمام من مقرّه في شمال باريس، تتمتع شبكة الأغا خان للتنمية بموارد واسعة وهي أحد أكبر المنظمات العالميّة غير الحكوميّة في العالم. في الواقع، تتمتع [شبكة الأغا خان للتنمية] بمقام دبلوماسي في الكثير من الدّول. (كما تستخدم المفوضيّة الأوروبيّة واللجنة العالميّة للصليب الأحمر مصطلح "مفوضيّة" للإشارة إلى مكاتب ممثليهم في البلدان الأخرى). تمّت تسمية لشبونة الموقع الثاني لمفوضيّة الإمامة.

إختار سموّه المهندس المعماري الياباني الشهير، فوميهيكو ماكي، الذي يدعو: سيّد الشكل والنّور، لتصميم البناء. يقول الكاتب المعماري فيليب جوديديو أنّ الأغا خان ناقش مع ماكي منبع النّور الطبيعي "المنبعث عن خلق الله" و"ذاك [النّور] الذي ينبعث عن المصادر البشريّة، على شكل فنٍّ وثقافةٍ ومعرفةٍ بشريّةٍ ملهمة." وأظهر في نفس الوقت إنجذابه إلى [حبّه ل] حجر الكريستال

وميزاته في كسر الضوء.

يقول شريك ماكي، جاري كاميموتو: لم نفهم بشكل كامل ما كان يقوله سموه لنا إلى أن بدأنا بدراسة حجر الكريستال وحصلنا على عينة منه. تغير الطريقة التي يتصرف بها الضوء في حجر الكريستال هذا الشيء.

لقي نوع من حجر المرو عديم اللون وهو حجر الكريستال تقديرًا كبيراً من أجداد الآغا خان الفاطميين الذين كان مقرهم الإمبراطوري في القاهرة. نحت الحرفيون المصريون الماهرون من الكريستال أشياء عالية القيمة عادةً ما كانت تقدّم كهدايا دبلوماسية. ذكر مؤرخ العصور الوسطى المسلم، المقريزي أن خزينة الإمام-ال خليفة المستنصر بالله احتوت على 1,800 إناء من الكريستال. تتلقى هذه الأشياء الآن ملايين الدولارات في المزادات العلنية وعادةً ما توجد في المتاحف والمجموعات الخاصة.

دعا الآغا خان المهندس المعماري إلى ربط البناء رمزيًا بالإيمان وتاريخ ثقافي "تتمحور حول ألغاز حجر الكريستال الجميلة". سطوح حجر الكريستال المتعددة تعطيه ميزات متفرقة ما يجعله يبدو شفافاً أو نصف شفاف أو معتماً كيفما تحركت زاوية الضوء. تدرجات ألوان الكريستال متعددة بشكل واسع ويمكن أن تكون رقيقة أو ضاربة بأشكال مختلفة - شفافة، أو شاحبة أو دخانية، وتتراوح ألوانه بين الأبيض والوردي، و الذهبي والأسود. اقتبس عن الإمام قوله: إنه بسبب هذه الصفات يبدو حجر الكريستال رمزاً مناسباً للجمال اللامتناهي وسرّ الخلق - والخالق الدائم للكشف.

كان موجز الزيون [الآغا خان] معقداً ويتطلب فطنة في التنفيذ. أراد أن يرى البناء مغموراً بتلال زجاجي يعبر بشكل رمزي عن رؤى الإسلام الظاهرية والباطنية، بالإضافة إلى رغبة الجماعة في "السير بجراً وثقة إلى الحداثة".

تشغل اليوم مؤسسة الآغا خان لكندا مكاتب البناء. في الطابق العلوي يتضمن مقر سموه مكاتب لمساعديه الشخصيين، بالإضافة إلى غرفة إجتماع خاصة مزينة بأشجار القيقب. هناك فتحة في جدار شرقته تسمح له بالنظر مباشرة إلى نهر أتاوا بينما تحجب [هذه الفتحة] إزدحام سببسيكس وتحافظ على خلوة الآغا خان.

يتمحور البناء حول فسحة (تجها-باغ) مفتوحة، وهي حديقة تماثل الحديقة التقليدية الفارسية الرباعية الأقسام. هذا التصميم المؤلف للفسحة في إيران ووسط آسيا وجنوب آسيا، تم تكييفه في نسخة أتاوا ليناسب المناخ الشمالي حيث أشجار العرعر دائمة الخضرة، وسياج القبس، وأشجار السلفيريبي [سنجد] وغطاء أرض مغطى بالزهور. تشكل الحديقة واحة يمكن رؤيتها والوصول إليها عبر الأتريوم [بناء مفتوح يقع جانب المدخل] و المدخل الشرقي. يتدفق الضوء من الحديقة عبر ألواح زجاجية ضخمة إلى كافة البناء. يشكل الأتريوم والتجها باغ [الحديقة ذات الأقسام الأربعة] محوراً يصل أجزاء البناء المختلفة بينما يخلق حرماً داخلياً.

إنه الأتريوم الذي سيستضيف أحداثاً عامة، ما يمثل خاصية المفوضية الأكثر تميزاً. الأتريوم مكان مهوي ومملوء بالضوء، وهو مكان مفتوح تصل أعلى نقطة فيه إلى 17 متراً مغطى بسقف زجاجي غير متقارن. القصد من هذا الهيكل المتعدد السطوح أن يحاكي حجر الكريستال. إذا ما تم النظر إليه من الخارج، يرى كالجانب الأكثر استثنائية في البناء. يمكن رؤية خياله بوضوح على النهر في جاتينيو. يوجد تحت القشرة الخارجية للسقف طبقة من ألياف زجاجية محبوكة تظهر وكأنها تطفو كسرادق فوق الأتريوم. وتخلق في محاذاة غير متقارنة مع الطبقة العلوية ظلالاً عملياً لنماذج معقدة تحرف الضوء الخارجي والداخلي في زوايا مختلفة. تزيد الأرضية الملونة بألوان فاتحة مصنوعة من القيقب الكندي، الشعور بالإنارة في هذا المكان.

تعطي الحواجز الغربالية [المفرغة] الجميلة (جالي) على جوانب الأتريوم الأربعة أثراً إحاطة بالمكان الكبير من غير خلق حاجز ملحوظ لتتدفق الضوء. يثير النظر إلى الأتريوم من خلال الجالي [الحواجز الغربالية] من الطابق العلوي شعوراً مفعماً بالغموض. توجد عادةً شبكات مزخرفة كهذه في عمارة جنوب آسيا، بما فيها تاج محل وقصور الراجاستاني. تتدلى حواجز الجالي المصنوعة في كامبرج- أونتاريو، على علو 2.5 متراً تقريباً فوق حافة أتريوم المفوضية. مصنوعة من الألمنيوم المقولب، تحمل الجالي [الحواجز الغربالية] أشكالاً مسدسة مضاعفة متكررة وخطوط بسيطة، وهو نمط لامتناه يرمز إلى الأبدية الإلهية. بينما يستوحي [هذا التصميم] من التصميم الإسلامي، فهذا التصميم الإبداعي ليس تقليدياً. يظهر هذا النمط أيضاً على سطوح زجاجية على البناء الخارجي.

قال ماكي أثناء التشييد: سيكون البناء ككل تفاعلاً بين الصفاء البصري والكمد/عدم الشفافية مغشاً بدرجات مختلفة من نصف الشفافية. يعزز حوالي 300 لوح زجاجي ذلك الشعور بالإنفتاح والشفافية. من الممكن الرؤية عبر البناء الممتد على طول 87 متراً. تم مزج أنواع مختلفة من الزجاج وترتيبها بطريقة ماهرة لتعطي الصرح كيفية سماوية/لامادية. الجدران الرئيسية لواجهة المبنى مكسوة بالواح من النيوباريز [زجاج ياباني]. النيوباريز مادة بناء فريدة مصنوعة من الزجاج المبلور، له مظهر شبيه بالمرمر، وخصائصه العاكسة للضوء تغير اللون بلطفاً بناءً على الوقت من النهار. تلتقط البلاطات الضوء وتعكسه من المحيط بما فيه اللون الأخضر والأحمر الخريفي من الغطاء النباتي، والأزرق من السماء، والذهبي من الشمس.

يقع البناء على منصة غرانيت سوداء التي تسوي الانحدار في الأرض وتصله عن الحديقة التي على أرضه. (لم يكن على المفوضية أن تناقش ثقافات الشرق والغرب وحسب، بل كان عليها أيضاً أن تلاقي معايير وكالة العاصمة الوطنية الواقعة على

الجانِبَ الغربِيّ للملكِيّة [الأرض] وحاجات المقيمين في الجانب الشرقيّ). عالج المهندسون المعماريّون هذه التّحديات من خلال إنشاء ميادين وشرفاتٍ عديدة.

بالنسبة للأغا خان، تمثّل مفوْضية الإمامة الإسماعيليّة تجلّياً للتعدّدية التي يعتبرها أساسيّة/حيويّة من أجل مستقبل البشريّة. مازجاً تأثيراتٍ تصميميّةٍ من أرجاءٍ إسلاميّةٍ متعدّدة والإبداع المعماريّ اليابانيّ والمواد المحليّة والإندماج في البيئة الطبيعيّة والثقافيّة الكنديّة، رأى [الأغا خان] رؤيته في بناءٍ عظيمٍ تظهر بالقرب من حافة نهر أتاوا. قال [الأغا خان] مختتماً خطابه في حفلة الافتتاح: إنّه دعاؤنا أن يقدّم تأسيس المفوْضية فرصة تعاونٍ غنيّة مرساةً بعمقٍ ودائمة الإتساع. تعاونٍ في خدمةٍ متفانيّةٍ للقيم القديمة، وفي إدراكٍ ذكيٍّ للحقائق الجديدة، وفي التزامٍ مشتركٍ بأحلامنا المشتركة بعالمٍ أفضل.